مؤتمر اللغات الشرقية

وخطبة الوزير غلادستون

وَلَّى المؤتمر بين جلساتهِ على ما ذكرنا في الجزء الماضي وتُليت فيهِ الخطب الحسان عمَّا يتعلَّق بالاسيويين والافريقيين واهالي جزائر البحر حاضرهم وغابرهم من حيث اللغة والعلوم والفنون والاخلاق والعوائد وادخل بينهم اليونانيون القدماء حتَّى كدنا لا نعرف حدًّا لموضوع هذا المؤتمر. ومن الخطب التي كان لها الوقع العظيم في نفوس السامعين خطبة غلادستون الوزير الشهير تلاها عنهُ الاستاذ مكس ملر رئيس المؤتمر وقد لخصناها في ما يلي قال

مهما يكن من تسامحكم في تخويلي شرف الخطابة فيكم فانني لا ارى لي بدًّا من الاعتذار عن قرن اسمي باسم اعضاء مؤتمر شرقي وانا اجهل لغات الشرق ولا اعلم من امر اممهِ واخلاقهم وشرائعهم الاَّ ما يتعلق منها بالزمن السابق للتاريخ ولو كان بعضها قد حُقِّق الآن تحقيقًا تاريخيًا

ان اقدم عمران عرفناهُ الى الآن معرفة محققة ولو بعض التحقيق هو العمران البابلي الذي نشأ في سهول بابل والعمران المصري الذي نشأ في وادي النيل ويتصل بالشعب البابلي والمصري شعب ثالث كان متصلاً بحر فارس من جهة المشرق و بحر الروم من جهة المغرب وهو الشعب الفينيقي ومن المرجح انهُ كان يوصل التجارة بينهما . و بواسطة هذا الشعب انتشرت الصنائع على شواطىء بحر الروم وامتدَّت الى ما وراءها وفاضت خيرات المشرق على بلاد المغرب وسكانهِ . ولكن سكَّان المغرب لم يكونوا متساوين في استعدادهم لقبول هذه الخيرات والانتفاع بها ولم يبقَ من دلائل ذلك الى عهدنا هذا الاَّ آثار قليلة متفرقة وبينها اثر واحد جليل الشان وهو اشعار هوميروس البديعة فانهُ لم يبقَ غيرها من كل الاشعار التي تغنَّى بها الشعراء في تلك العصور الخالية على شواطىء بحر الروم صابرةً على كرور الايام وتقلبات الزمان وهي مرآة الايام الغابرة نرينا الشعوب الذين نُظمت في عهدهم ولاسيَّما الشعب الذي كان ساكنًا في بلاد اليونان وتمثل لنا احوال معيشتهم

ومفاد ما تقدَّم اولاً ان معارف الناس كانت مجتمعة في الشرق وثانيًا انهُ كانت امة تسكن بلاد الشام ميالة الى الاتجار وركوب البحار وانها ابقت اثرًا لصنائعها في كل شاطىء من شواطىء بحر الروم . ثم اننا قد علمنا في هذا القرن امورًا كثيرةً عن العمران الشرقي حيثما كان في اول عهدهِ وقد أرتنا الابحاث الحديثة شيئًا من آثار تمدُّن غربي كان

كأنهُ صدًى للتمدُّن الشرقي ويمكننا ان نضيف الى هذه الآثار صورًا كثيرًا مقتبسة من اشعار هوميروس تمثل احوال المعيشة في ذلك العصر تمثيلاً تامًّا جامعًا . ولذلك فهذه الاشعار افصح مفسر لكنوز الآثار الصامتة واقوى دليل على عظيم الدَّين الذي نجد اوربا والغرب مديونين بهِ لآسيا وللشرق عمومًا وهنا يقوم عذري في تعرُّضي لمباحث هذا المؤتمر الشرقي لان قيامي على درس اشعار هوميروس زمانًا طويلاً بالصبر والمزاولة يخوِّلني تقديم شيء ولو عدَّ طفيفًا الى هذا المجمع الجليل الغاية الواسع المباحث

واني لا اتعرَّض للجدال الطويل الذي دار حديثًا على اشعار هوميروس ولكني انظر اليها من حيث وصفها الامور الواقعيَّة والاشياء الحقيقيَّة والافكار التي كانت شائعة في عصر ناظمها ومرادي ان استدل منها على ما ورد الى بلاد اليونان من كنوز المشرق العلميَّة والصناعيَّة على يد الفينيقيين ذلك الشعب الكثير الاسفار الذي كان واسطة الاتصال بين اسيا واوربا وكان مستأثرًا بذلك على ما يظهر وبيدهِ كانت تجارة السلطنة المصريَّة . والتجارة واسعة النطاق وهي تحمل القائمين بها على ان ينتفعوا ما يقع بين غيرهم من الحروب لا ان يشاركوهم فيها ولذلك سهل على الفينيقيين ان يتجروا مع بابل واشور ومع مصر ايضًا وهي معادية لها

اما هوميروس فحسب ان كل ما جاءت بهِ السفن الفينيقيَّة فينيقيٌّ وسمَّى الناس الذين دخلوا بلاد اليونان من الجنوب الشرقي فينيقيين ولذلك فهذا الاسم لم يكن خاصًّا بالتجَّار والتجارة الفينيقيين بل كان شاملاً للاشوريين والمصريين الذين كانوا يصلون الى بلاد اليونان بالسفن الفينيقيَّة من باب التغليب أو من باب تسمية الكل باسم البعض كما ان العرب يسمون الاوربيين كلهم افرنجًا باسم الفرنجة اي الفرنسويين

واذا اعتبرنا الفينيقيين بهذا المعنى نجد ان اول دبة وهبوها لليونان كانت متعلقة بالنظام السياسي كما يظهر من الكلمة اناكس اندرون اي سيِّد الناس فقد اكثر هوميروس استعمالها لقبًا للملك اغاممنون ولقَّب بها ايضًا خمسة آخرين لصفات امتازوا بها على سواهم ولم يخصها باليونان بل لقَّب بها التروادیين واستعملها لاناس كانوا قبل حرب تروادة بجيلين على الاقل . ويسهل علينا تفسير هذا اللقب اذا فرضنا انهُ كان لقبًا للولاة الذين كانت مصر تنصبهم على بلاد اليونان قبل حرب تروادة حينما كانت مصر في اوج مجدها وكانت بلاد اليونان خاضعةً لها . فهو من هذا القبيل اقدم اثر تاريخي لانتظام الحكومة في بلاد اليونان ولاسيما لان اوجياس الذي كان ملقبًا بهِ هو الذي انشأ الالعاب الاولمبيَّة

ولم يتصل بنا كيف تغلّب المصريون على اليونانيين ولكن يرجح انهم لم يجدوا مشقة في نشر لوائهم على اقوام يسكنون القرى و يعيشون بالفلاحة كما كان اليونانيون . ثم لما انتظمت شؤون اليونانيين بتولي المصريين عليهم ازدادت قوتهم وكبرت نفوسهم وصاروا اهل حرب وجلاد وخلعوا نير الاجانب عن اعناقهم . ولم يشر هوميروس الى تسلط الاجانب عليهم قبل عصره ولكن الآثار المصريّة اشارت الى ذلك فضلاً عما في كلمة اناكس اندرون من الدلالة كما تقدم فقد ورد في الآثار المصريّة انهُ في السنة الرابعة من ملك رعمسيس الثاني في خمام القرن الخامس عشر قبل المسيح حارب الدردانيون سكان تروادس مع جنود مصر تحت قيادة مرنوت ملك الحثيين ثم عادوا الى اوطانهم بعد عدة من السنين . فلا عجب اذا اعطى ملوك مصر لقبًا مصريًّا لامير الدردانيين ثم توارثهُ ابناؤهُ الى ايام حرب تروادة

ثم ان المدافن التي اكتشفها الدكتور شليمن في مسيني وجدت فيها جثث اشخاص يدل ما معهم من الحلى انهم من ملوك تلك البلاد وخمسة منهم وجوههم متجهة الى الغرب كما كانت عادة المصريين في دفن موتاهم . وهناك آثار كثيرة مصريّة منها ميزان لوزن اعمال الميت . والمرجح ان اغامنون من المدفونين هناك وكان يطلق عليهِ لقب اناكس اندرون كما تقدّم وذلك يدل ايضًا على انهُ حكم بلاد اليونان ملوك من قِبَل مصر او كانوا خاضعين لها . واذا صحت هذه الظنون والنتائج وكانت دولة شرقيّة قد بثّت اول بزور العمران شمالاً وغربًا لاق بنا ان نرى كيف قبلت تلك البزور عند الشعوب التي بثّت فيها

اذا اعتبرنا الانساب التي ذكرها هوميروس فتروادة اقدم من كل ولايات في اخائية وكان لها ملك ومجلس شورى ولكن اعضاء هذا المجلس لم يكونوا من أُباة الضيم المطالبين بالحقوق فكانوا يقبلون اوامر ملكهم كأنها رسوم دينيّة واجبة الاتباع بخلاف اهل اخائية الذين لم يكتفوا بما اقتبسوهُ من التمدن الشرقي كما اكتفى التروادیون بل نوّعوهُ بما عندهم من الانفة وعزّة النفس فكانوا يجادلون و يحاورون ولا يقبلون الاوامر كانها قضايا مسلمة بل يمحصونها ويعترضون عليها سواء كانوا في السلم او في الحرب مثال ذلك ان الملك اغامنون ارتأى مرّة ان يترك حصار تروادة و يتحوّل عنها فاعترض عليهِ ديومد وصرفهُ عن رأيهِ بالحجة والدليل

وبقي في بلاد اليونان من آثار المصريين الاعتقاد بان الملوك متصلون بالآلهة فان المصريين كانوا يعتقدون ان ملوكهم الاولين كانوا آلهة كما يظهر من درج تورين واذلك نجد هوميروس يوصل انساب ملوك اليونان بسودهم زفس (المشتري) او غيرهِ من

المعبودات ومثل ذلك ذكرهُ لاسم ديوتريفس وديوجنس اسبي تربية الاله ومولود الاله وذلك مثل الاسماء المصرية المتصلة باسم المعبود را

واذا نظرنا الى وصف الابطال الذين ذكرهم هوميروس نرى في وصف بعضهم ادلة قاطعة على اتصال الفينيقيين او الشرقيين عموماً باليونانيين فقد قيل عن احدهم انهُ بنى قصرهُ بحجارة كبيرة منحوتة كما يفعل الفينيقيون وصنع سريرهُ من خشب الزيتون ورصعهُ بالذهب والفضة والعاج وصبغ اغطيته بالارجوان (فونيكي) المسمى باسم الفينيقيين الى غير ذلك مما لا يبقي شبهة عند من يقرأ الاودسي ان هوميروس كان عالماً باتصال الفينيقيين باهل بلادهِ وبما اقتبسهُ اهل بلادهِ منهم في الصناعة والاخلاق

اما في الديانة فلم يقتبس اليونانيون شيئاً من الفينيقيين والمصريين سوى المعبود بوسيدون الذي تقلوهُ عن الفينيقيين ..... (وبعد كلام طويل في هذا الشأن استطرد الخطيب الى الكلام على الاشوريين وفضلهم على اليونانيين فذكر الادلة الآتية على على علاقة اشور ببلاد اليونان وعلى ان اليونانيين اقتبسوا جانباً من عمرانهم من الاشوريين كما اقتبسوا من المصريين والفينيقيين وهي)

(١) ان هوميروس ذكر النهر اوقيانوس كأنهُ مصدر الانهار كلها ومصدر الناس والآلهة . وذُكر في الصنائع الاشورية القديمة ما يماثل ذلك

(٢) ان كلمة ثالاسا اسم البحر عند اليونان كلدانية الاصل

(٣) ان بوسيدون يشبه المعبود ها من اللاهوت الاشوري و بوسيدون كان اسمر اللون وهيا خالق الزنوج

(٤) ان الثالبه او ولادة الآلهة موجود في الصنائع الاشورية ومنسوب الى المعبودة عشتار وهو موجود ايضاً عند اليونانيين وقد نسبهُ هوميروس الى المعبودة ايوكوثيا وهي فينيقية الاصل

(٥) ان الاشوريين يزعمون ان الناس الاولين كانوا كبار الاجسام كالجبابرة وذكر هوميروس ان المعبود بوسيدون كان لهُ علاقة بالجبابرة

(٦) ان عشتار الاشورية تشبهُ افروديتي اليونانية

(٧) ان هوميروس قال ان ايدونيوس يقفل ابواب الهاوية و يقول الاشوريون ان للهاوية سبعة ابواب والغرض منها حبس الاموات

(٨) ان ماذكر من نسبة المعبود مرودخ الى ابيه في الكتابات الاشورية يشبه ما ذُكر

في اشعار هوميروس من نسبة البلوالى ابيو زفس

(٩) ان الثالوث البابلي المؤلف من آن وبعل وهيا يشبه ثالوث هوميروس وهو زفس وبوسيدون وايدونيوس ان لم يكن اياهُ

(١٠) لا تذكر النجوم في اشعار هوميروس الاّ في ما يتعلق بأمر فينيقي كأن ذلك مبنيٌّ على علم التنجيم الكلداني

(١١) ان ذكر العدد سبعة كلداني بنوع خاص وقد ذكر هوميروس ان لمدينة طيبة سبعة ابواب وهي المدينة الوحيدة في اكاديا التي قال هوميروس ان اصلها شرقي

(١٢) ذكر رولنصن انهُ كان عند الاشوريين نحو ١٩ الهًا وذكر هوميروس ان آلهة اوليا نحو ٢٠ الهًا

(١٣) ان نزول عشتار معبودة الاشوريين الى الهاوية سبب اضطرابًا شديدًا في السماء وذلك يشبه ما هدَّد بهِ هليوس زفس وهو انهُ ان لم يجب طلبهُ لم يعد يشرق في السماء بل اقتصر على انارة العالم السفلي

(١٤) ذكر في الصفائح التي فيها قصة الطوفان البابليّة انهُ حدث بسبب الخطيئة وذكر هوميروس الطوفان وعلتهُ على خطايا الرؤساء

(١٥) ان اله القمر هو ابو اله الشمس بحسب النظام البابلي . اما القمر فلم يُذكر مشخصًا في اشعار هوميروس ولكن الشمس ذكرت تلاتًا منسوبة الى اب وذلك في امور شرقيّة محضة . انتهى

هذه خلاصة خطبة الوزير غلادستون اقتصرنا منها على ما نقلّ ودلّ ويظهر لنا انهُ خالف اكثر الباحثين في الآثار القديمة واللغات الشرقيّة فبخس الفينيقيين كثيرًا من الحق الذي اعترف لهم بهِ مكس ملر وغيرهُ من العلماء وخالف بتري وغيرهُ من الذين ذهبوا حديثًا الى ان اليونانيين علّموا المصريين النقش والحفر المشابه للطبيعة وخالف سايس وفلوبر وغيرهما من الذين استدلوا على ان الفينيقيين نزلوا القطر المصري في العصور الغابرة وبنوا فيهِ المدن الفخمة قبل وصولهم الى بلاد الشام وان مغلاوس اتصل بهم واتجر معهم لما الى القطر المصري . ولو اطلع المستر غلادستون على خطبة المستر فلوبر التي ادرجنا معرّبها في المقتطف في العام الماضي تحت عنوان حرب تروادة وطريق الفينيقيين لرأى لهم من الفضل اكثر مما نسب اليهم